النقد الثقافي والتقانة التاوييلية

في النقد الثقافي يتنامى التأويل في بعدين ظاهر وخفي ، يفكك الأول أنظمة النصوص الثقافية الظاهرة ، ويكشف عن عللها ، والمتحكمات النسقية فيها ، وهو إجراء يقوم على التقويض، والإزاحة ، وإقصاء المركزيات ، على نحو غير مرتهن بمركزية النص الجمالية ، أو استقلاليته البنائية . أما الآخر فيقوم على رؤية ما بعد حداثية مضافة تعتمد على ما يمكن تسميته بنقد أو (تفكيك الامتصاص) ويتمركز حول فاعلية الكشف عن السياقات التاريخية التي امتصها النص وأسهمت في إنتاجه ، وهي سياقات مضمرة لم تكن مقروءة في مرحلة البنيوية وحتى في بعض اتجاهات ما بعد البنيوية التي تقوم على استقلالية النص الأدبي عن السياقات الثقافية المغايرة وعن المقاربات الشمولية لنقده ، فالتحول النقدي الثقافي، في النقد الثقافي ، ليس في العودة إلى السياقيات بوصفها أنساقاً خارجية مؤثرة ، تؤثر في النص ، وإنتاجه ، كما هي الحال في المناهج السياقية التقليدية ، بل هي تقوم على تصور نقدي مختلف مرتبط بتحولات الثقافة المعاصرة ، وقيامها على ثقافة المتن المفتوح الذي لا يختزله الجمالي، أو المتن الجمالي المألوف أو التقليدي، بل المتن الثقافي المتعالق في فعلي الإنتاج والتلقي .

شاعت في هذا النقد مقولات (الانفتاح) عوضاً عن (الانغلاق) و(الشمولية والتكامل) عوضاً عن (النقض والتقويض) وتنامت مقولات المقاربات الجمالية الثقافية المفتوحة ، والبعد الجمعي للتجربة الثقافية الجمالية .

ويبدو لي أن النقد الثقافي ليس مجالاً تأويلياً للبنى الثقافية ، ومنها الأدبية ، وهو لا يعني كما يحلو للبعض عودة انكفائية رجوعية إلى السياقيات ، وليس حلقة مفرغة ، يدور فيها الناقد من السياق إلى النص ، ومن النص إلى السياق ، فهذه نظرة تبسيطية قاصرة ، بل إن هذا الحراك هو حراك إشكالي يرسم ملامح الإشكاليات الفكرية والثقافية العالمية التي يتسم بها العصر ويتلون بها ، وقد يصح القول، إلى حد ما، بأنه شكل من أشكال العولمة الثقافية بإنكار مفهوم الهويات الصغيرة والكبيرة ، وتوحيد بنى الثقافة العالمية عن طريق المتن الثقافي المفتوح على غرار السوق الاقتصادية المفتوحة ، بعد التبصر بمزالق هذه الرؤية الخطيرة. ولكن هذا القول يتراجع عندما يصبح الهامش متناً ليمارس ضرباً من ضروب المركزيات الثقافية المضادة والمتحكمة ، في كثير من الممارسات الثقافية العالمية ، إلا أن هذا الاحتدام الفكري يظل مشهداً حراً ومتحركاً له تأثيره الايجابي الذي لا يغفل في أثارة الغبار بوجه من يجد أن الطبيعة الاختزالية ، في الفكر، كما هي في الحياة ، تبقى متراجعة أمام نزعات الانفتاح والشمولية والتعدد التي تعطي معنى للرفعة المقدسة وحيوات الحضارات.